



قد يرتكب الفرد هفوة بسيرة، ثم يقلع عنها وينجو من عقابها، وقد يقع في ورطة تفسد عليه حاضره ومستقبله جمِيعاً.. والجماعات في ذلك كالأفراد قد ترتكب إثماً خفيفاً فتمر به، وتخلص من آثاره، وقد تقع في ورطات عسراً تفسد عليها يومها وغداً وتحبط عملها في الدنيا والآخرة.

إن الشر مراتب وآثاره متفاوتة، وأقل الأخطاء فكراً ما لحقته يقظة الضمير وسرعة الندم، وما أعقبته توبية ترتع الخرق وتداوي الجرح، وأشدتها سوءاً ما صحبه الإصرار العنيد وانضم إليه إخراص الأصوات الناصحة، وإخماد أنفاسها، ثم المضي في طريق الغواية دون الاستماع إلى واعظ يردع أو ناقد يجأر، وقد كان ذلك دأب اليهود قديماً فقال الله فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمُقْسَطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبَطُتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ}.

وبذور الشر تنبت في أكنااف المجتمع أول الأمر مخالفات محدودة الخطر محصورة الشأن، ولكنها مع الإهمال والاستهانة لا تزال تنمو وتغلف حتى يفسد ما حولها، كالنبات الشيطاني عندما يترك فيلتهم ما حوله، وملاحظة تاريخ الأفراد والمجتمعات تنطق بهذه الحقيقة. وذلك هو السر في أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يوصي بواذ الشر في مهده عندما يقول: ((اتبع السيدة الحسنة تحماها)), أي لا تنتظروا ولا تتمهل بعد وقوع الخطأ بل أسرع إلى مداواته قبل أن يستفحض ضرره. ومع هذا الإرشاد الواعي نجد إنذاراً آخر لمن يؤثرون الاسترخاء والتباطؤ، فإنهم قد يغترون بالإهمال الإلهي فلا يفكرون في متاب أبداً، وهنا نسمع قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلِه... وَتَلَاقُهُ - تَعَالَى - : {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102]).

ذكر «ابن كثير» في تاريخه «إن الله أوحى إلى نبي من أنبياءبني إسرائيل يقال له (أرميا) حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفهون، وأعيناً ولا يبصرون، وأذاناً ولا يسمعون، وإنني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم، إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها، أما أخبارهم فأنكروا حقي، وأما قراؤهم فعبدوا غيري، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا علىٰ وعلىٰ رسلي، وإنني أقسم بجلالي وعزتي لأهين عليهم جبوشاً لا يفهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم

ولا يرحمون بکاءهم، ولأبغثن فيهم ملکاً جباراً فاسياً له عساکر کقطع السحاب، ومواکب کأمثال الفجاج، کأن خفغان رایاته طیران النسور، وکأن حمل فرسانه کر العقبان یعیدون العمران خراباً ویترکون القرى موحشة». وقد حاول اليهود أن يخدعوا الله ببعض الطاعات المغشوشة، وأن يتخلصوا من الهوان الذي نزل بهم اصطناع توبه سهلة، توبه تجعلهم یلبسون ثياب التقوی على کيان من الکنود.

والمنافق یستطيع أن یقوم ببعض الصلوات والمرائی یستطيع أن یأتي بعض الصدقات، لكن قلبهما بعيد عن اليقين، وفکرهما غریب عن الحق، ولذلك جاء فيما أوحى الله لعیسی بن مریم -علیه السلام- على ما روی ابن کثیر: «وسيقول لك بنو إسرائیل صمنا فلم یتقبل صیامنا، وصلينا فلم تقبل صلاتنا، وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا، وبکينا بمثل حنین الجمال فلم یرحم بکاؤنا، فقل لهم: ولم ذاك وما الذي یعنی؟ أو ليس خزائن السماوات والأرض بيدي أنفق منها کيف أشاء؟ أو لست أجدود من سئل وأوسع من أعطي، أو أن رحمتي ضاقت؟ وإنما یتراحم المتراحمون بفضل رحمتي. ولو لا أن هؤلاء القوم يا عیسی بن مریم گروا أنفسهم بالحكمة التي تورث قلوبهم استحباب الدنيا على الآخرة لعرفوا من أین أتوا.

وإذاً لا يقنا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم، کيف أقبل صیامهم وهم یتقون عليه بالأطعمة الحرام؛ وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم ترکن إلى الذين یحاربونی ویستحلون محارمي؟ وكيف أقبل صدقاتهم وهم یغصبون الناس عليها فیأخذونها من غير حلها؟ يا عیسی إنما أجزي عليها أهلها، وكيف أرحم بکاءهم وأیديهم تقطر من دماء الأنبياء، ازدلت عليهم غضباً.. إن تاريخ هؤلاء الناس ملآن بالعبر والمثلات، وجدير بنا أن نتدارسه ونستفید منه.

فنحن العرب الأمة الوارثة للوحي الإلهي الأخير، کلنا أن نعمل به، وأن ندعوا غيرنا إلیه، أو بتعبر آخر: کلنا أن نصوغ أنفسنا في قالبه صياغة جميلة معجبة. وأن نغرس الآخرين باتباعنا واقتفاء آثارنا والنسج على منوالنا... وقد نجح آباءنا الأوائل في ذلك المضمار فكانوا في العالم الذي لم تنقض ذكرياته طليعة حضارية رائعة.. ثم تسالت إلينا علل الأمم البائدة. فطوط رایاتنا بعدم أزдан بها الأفق دهراً طويلاً. وانسحبنا من الميدان بغير نظام. وخيم على العالم الإسلامي أجمع سکون البلى والضياع.. ثم بدأت طلائع دورة تاريخية أخرى شق طريقها رجال من أمثال جمال الدين الأفغاني أرادوا أن ینفخوا الحياة في الأمة الهامدة. وأن ینذکروها برسالتها الخالدة.

وليس عجیباً أن تکثر العوائق أمام هذا النھوض الواجب؛ فإن عداوة الحق قديمة قدم الشیطان نفسه، ومذ خلق الله آدم ومکن في الأرض ذریته، قال إبليس لله: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاکِرِينَ} [الأعراف: 17]. وهذه الخصومة الأزلية للحق هي التي جعلت أعداء الإسلام یکنون له الحقد الدفين ویثرون عليه الشر المستطير، وقد أثبأنا الله -تبارک اسمه- بحقيقة هذا الموقف حتى نحسن الإعداد له ولا نؤخذ على غرة من قبله، فقال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٌ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْهُ اللَّهُ وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُو وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 217]. والارتداد الشامل قد یکون سوءة مخزية لا یرضها لنفسه إلا أمرؤ مهین یقبل الانسلاخ عن دینه جملة وتفصيلاً. ولا حديث لنا مع هؤلاء...!! إنما الحديث مع نفر آخر من المسلمين تعرف منهم وتنکر! يخلطون البدع بالسنن والحسنات بالسيئات والمعاصي بالطاعات. يأخذون من الدين ما یعجب، ویترکون ما ینبو عن أذواکهم المريضة... مع أصحاب هذه السیرة المضطربة نرید أن نقف طويلاً لنقول للقوم إن الله -جل جلاله- لا یعامل بهذه الطريقة. ولا یؤوی أمة تعیث بوجهه هذا العبث... وقد روی لنا ابن کثیر کيف دعا اليهود وبکوا!! وهیهات؛ {فَمَا بَکَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا کَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدُّخَان: 29]. المجتمع المؤمن یعرف معرفة جيدة مثله العليا، ویسیر نحوها بثبات،

وقد يفرط بعض أفراده في واجباتهم بيد أن هذا التفريط الفردي لا يعدو أن يكون على جزئية لا تظهر حتى تخفي، ثم سرعان ما تغلب روح المجتمع الجاد روح الفرد الماجن.

فتمضي القافلة كلها إلى غايتها المرسومة. إن أجود البيئات صحة لا تخلوا من أفراد قد يصابون بالحميات المهلكة. وهذه الإصابة لا ينكر وقوعها، بل تسجل في إحصاءات متداولة، وتسجل معها كذلك كيف عالجت البيئة السليمة بعض أجزائها حتى صح أو هلك، ليحل محله أقوى وأفضل. إننا نريد أن ندقق في حماية الكيان العام للمجتمع.

وأن نجعل الضمير العام للأمة حساساً بما يؤثر في صفاته من خير أو شر. وقد سقنا من أحوالبني إسرائيل القديمي ما يستحق التقليل والاستنباط، والعبرة المستفادة من هذا التاريخ أن يتيقظ الدعاة والمرشدون إلى بذور الفتنة ومحارس الجريمة.

يقتلونها في مهدها حتى لا تقتلهم عند اشتادها. إن الحرص على التوافل قد يكون سياجاً للحفاظ على الفرائض. وفي ذلك يروي أبو داود عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : "إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علمنا سنن الهدى.. وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه، وما منكم عن أحد إلا له مسجد في بيته، ولو صلیتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبیکم، ولو تركتم سنة نبیکم لکفرتكم". وشرح هذا الكلام أن ابن مسعود - رضي الله عنه - يخشى أن نتعود ترك الجماعة فيحر هذا إلى ترك الصلاة نفسها، ثم ينتهي الأمر بالنكوص عن متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الانسلاخ من الإسلام جملة. والذي يلاحظ سير الآداب العامة، وأسلوب الخروج على الفرائض والآداب يتأكد من صدق هذه الملاحظة.

إن المرض المجهز قد يبدأ صداعاً تافهاً.. نسأل الله المغافاة..

وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم،،،

المصدر: رابطة العلماء السوريين، نقلأ: مجلة لواء الإسلام، العدد الثالث، ذي القعده 1389هـ، السنة 24.

المصادر: